

القران الكريم:

كان القرآن الكريم ولازال بما حواه من أساليب فنية، وصور بلاغية، مصدر الإلهام للكثير من الشعراء والكتاب والأدباء والمبدعين، الذين وجدوا فيه ما عجزوا عن الإتيان به من صور الفن اللفظي، والأداء البلاغي، فكان لهم الكنز الزاخر بالعطاء، يعودون إليه كلما خانتهم الألفاظ، وأعيتهم المعاني، وضائق بهم سبل التعبير، فيجدون فيه ما يبدد حيرتهم، ويسعف قريحتهم. وكيف لا وهو الكتاب المعجز الذي أذهل الأولين وآخرين من أهل الفصاحة والبلاغة واللغة، بل تحداهم في أن يتوفوا لهمثل من قال جعّلتني بنو الإنس والجن على أن يأتوا بمثله هذا الأقر أن لا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً⁽¹⁾ صدق الله العظيم.

لاشك أن في هذه الآية القرآنية الكريمة دلالة كبرى على ما أبداه المولى عز وجل من تحد للإنس والجن على السواء للإتيان بمثل هذا القرآن ولو اجتمعوا وتعاضدوا وتكاتفوا وهو ما تحقق على مر الأزمان والعصور، ولم تجد البشرية من التسليم بعظمته وحجته الدينية حين أنار للناس طريق الهداية للنجاة في الدارين الدنيا والآخرة، وحجته الأدبية بما حواه من صور الإعجاز الفني والبلاغي، التي استمد منها الشعراء الكثير من فنون القول وأساليبه في نصوصهم الشعرية العربية وغير العربية. ((فهذا الشاعر الإيطالي "دانته" استلهم قصة الإسراء والمعراج في ملحمة الشهيرة الكوميديا الإلهية، وهذا الشاعر الألماني الكبير "جيتّه" الذي قرأ القرآن في ترجمته الألمانية، وترجمته اللاتينية، وأعجب به إعجابا كبيرا دفعه إلى أن يستلهمه ويستمد منه كثيرا من النماذج الأدبية، والموضوعات والصور في ديوانه المشهور: الديوان الشرقي للمؤلف الغربي))⁽²⁾.

هكذا كان القرآن الكريم ولا يزال ملكا مشاعا لكل من أراد الإفادة منه من العرب أو من الأمم الأخرى، وقد كان الشاعر المعاصر احمد الشارف أحد هؤلاء الشعراء الذين أفادوا واستقوا من هذا المنهل في تجاربهم الشعرية بطرق مختلفة، قامت وارتكزت أساسا على الاقتباس بنوعيه: الاقتباس النصي، والاقتباس الإشاري. وهذا ما سنقف عليه لاحقا بدءا من بيان مفهوم الاقتباس، ثم إيضاح كيفية تعامل الشاعر معه كأسلوب فني في نصوصه الشعرية.

مفهوم الاقتباس:-

(1) سورة الاسراء، الآية 88

(2) استدعاء الشخصيات في الشعر العربي المعاصر، ص 96.

تناولت الكثير من الدراسات المختلفة الاقتباس، وعرفته تعريفا لغويا واصطلاحيا، مما يغنيها عن الإعادة والتكرار، إلا بما سنورده كمقدمة توضح بشكل مختصر مفهوم هذا المصطلح النقدي، الذي سوف تسيير عليه هذه الدراسة.

((فالاقتباس لغة / مشتق من القبس: النار. والقبس الشعلة من النار. وفي التهذيب: القبس شعلة من النار تقتبسها من معظم. واقتباسها الأخذ منها. والقباس: طالب النار وهو فاعل من قبس ويقال قبس منه نارا أقبس قبسا، وأقبسني أي أعطاني منه قبسا، وكذلك اقتبست منه نارا، واقتبست منه علما أيضا أي استفدته، وفي حديث العرياض: أتيناك زائرين ومقتبسين أي طالبي علم، وفي حديث عقبة ابن عامر: فإذا راح أقبسناه ما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أي أعلمناه إياه))⁽¹⁾.

مما تقدم نلاحظ أن معاني الاقتباس في المعجم تدور حول مفهوم الأخذ والعطاء في مدلولها المادي والمعنوي.

أما في الاصطلاح: فهو((أن يضمن الكلام نظما كان أم نثرا شيئا من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، على أن لا يكون فيه إشعار بأنه منه، كما يقال في أثناء الكلام قال تعالى كذا، أو قال الرسول صلى الله عليه وسلم كذا، فان ذلك حينئذ لا يكون اقتباسا. أو أن تدرج كلمة من القرآن، أو آية منه في الكلام، تزينا لنظامه، وتفخيما لشأنه، ممهدا للمقتبس بحيث يكون مندمجا في الكلام اندماجا تاما حتى يصير من الكلام المقتبس نفسه))⁽²⁾.

أما عن الأسباب التي كانت وراء اختيار العلماء لهذه التسمية "الاقتباس" فقد كانت لها أسبابها وتعليلاتها التي يرى فيها البعض ما يكفي للأخذ بهذه التسمية. يقول البعض: ((وسمي الإتيان بالقرآن والحديث اقتباسا على الوجه المذكور أخذا من اقتباس نور المصباح من نور القبس، وهو الشهاب، لأن القرآن والحديث أصل الأنوار العلمية))⁽³⁾.

بهذا المعنى نظر الشعراء إلى الاقتباس، وبهذا الفهم وظفوه كأحد الأدوات الفنية، التي يمكن الافادة منها في بناء نصوصهم الشعرية، التي تزدد رفعة وسموا باقتباسها من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف. هذا وقد انقسم الاقتباس بمفهومه إلى نوعين أساسيين. نصي وهو ما التزم فيه الشاعر باستحضار نص الآية الكريمة كاملا أو جزء منها، و اشاري: وهو ما عمد فيه الشاعر الى استخدام بعض الألفاظ، أو التلميح إلى المعنى .

(1) لسان العرب، ابن منظور، ت أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي (د ط 1997م) بيروت، ج:11، ص:10.

(2) المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين الموحدين، ص 41، 42.

(3) المصدر نفسه ، 42.

أولا - الاقتباس النصي:

عرف الاقتباس منذ صدر الإسلام ((فقد أشار ابن رشيق القيرواني إلى ذلك الأثر في كتابه العمدة، في الشعر المنسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله:

كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ ثَنَّةٍ لِهَذَيْنِ ادْخُلُوا بِسَلَامٍ

كما ظهرت ملامح هذا التأثير بصورة جلية كذلك في العصر الأموي وما بعده. فقد روى الثعالبي أنه قد أتى الحجاج برجل من الخوارج وأمر بضرب عنقه فقال: إن رأيت أن تؤخرني إلى الغد فافعل. ثم قال:

يَفَرَجُ يَأْتِي بِهِ إِلَهُ إِنَّهُ لَلْيَوْمِ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ

فقال الحجاج انتزعه من قوله سَيَحْلُلُهُوْتَعَالَى: فِي السَّمَاءِ أَوَاتٍ وَالْأَرْضِ ضَرْبٌ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ { (1) وأمر بتخلية سبيله (2). ولم يكن العصر العباسي أيضا بعيدا عن التأثير بالنص القرآني، ولا سيما عند أبي العتاهية في قوله:

هُوَ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةٌ ثَجَرٌ جَرُّ أَذْيَالَهَُا
فَلَمْ تَكُ تُصْلِحْ إِلَّا لَهَا وَلَمْ يَكُ يُصْحِ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَلَزُورُهُ لَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَُا (3)

فالببيت الأخير من هذا النص أتى متأثرا ومتاخلا مع قوله تعالى: زَلْزَلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَُا (4).

وهكذا عرف الاقتباس من القرآن الكريم بأنواعه المختلفة عبر مراحل زمنية مختلفة مما يوحى بدوره وأهميته، التي تنبع من أن استحضر النص القرآني في النص الشعري، يعطي للنص مصداقية وتميزا لدلالته، انطلاقا من مصداقية الخطاب القرآني، وقداسته وإعجازه. ولعل هذا ما دفع الشعراء المعاصرين أيضا إلى استخدام الاقتباس النصي كوسيلة فنية يستطيعون من خلالها استلهم النص القرآني وما به من أساليب فنية وبلاغية تثري نصوصهم وتجعلها أكثر إبداعا وقيمة.

(1) سورة الرحمن، الآية 29.

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (د. ط. د ت) دار الجيل، بيروت، ج: 1، ص: 34.

(3) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (د. ط. د ت) ج: 1، ص: 18.

(4) سورة الزلزلة، الآية 1.

ومن الشواهد الأخرى قول الشاعر أبي العباس بن حنون في إحدى قصائده التي يقول فيها:

زَارَ سَارًّا فَحَرَيْنَ أَمْسَدَنِي سِي فَنَادَيْتُ يَا مَلَأُوْلُ
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَتَقٍّ هَـ، وَإِلَّا فَمَاتُوقُ (1)

فنرى الاقتباس واضحاً في البيت الأخير من قوله تعالى: ﴿وَلَسْ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ذلك تَلْعِيْزُ يَزِ الْعَلِيمِ (2) غير أن الشاعر بعد أن أتى بالشاهد القرآني، اختتم بيته بسؤال: وإلا فما تقول؟ وفي هذا السؤال جمالية رائعة، عبرت على أنه يتكلم من موقع القوة، لأنه يعلم يقيناً ألا كلام يقال بعد كلام الله؟ وفي نفس الوقت فهو يتحدى قارئ شعره بقوله هذا، لثقتة بأن ما يقوله ليس فيه أدنى شك، ولا يستطيع أحد أن ينكره. وبهذا فقد استطاع الشاعر أن يوظف النص القرآني، بما يخدم فكرته ويعززها، ويقوي حجته في إثباتها.

وكما عرف الاقتباس في الشعر القديم، فقد عرف في الشعر الحديث أيضاً، ومن الأمثلة على ذلك، ما نراه عند الشاعر علي الفزاني، حيث يقول في إحدى قصائده بعنوان "مفكرة" مستخدماً هذه التقنية:

يُمْكِنُ لِلْمَرءِ أَنْ يَصْنَعَ مِنَ الْكَارِثَةِ
شَيْئًا مُفِيدًا لِلْأَخْرَيْنِ
حُقُوقَ الْغُرَبَاءِ أَقْوَى قَدَمًا
عُرَاقَ النَّاسِ أَصْدِقَاءَ الْفُصُولِ
لِلْجِرْيَاعِ بِمَلْنَةٍ سَدْرٌ مَدِيَّةٌ
قَدْ تَكُونُ هِيَ الْجُوعُ
هَكَذَا نَحْنُ لَنْ نَخْسِرَ شَيْئًا
"إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا"
إِذْ ذَلِكَ نَكُونُ عَلَى عِلَاقَةٍ جَيِّدَةٍ
بِأَسْوَ الْأَشْياءِ (3)

يعبر الشاعر في هذا المقطع من قصيدته عن واقع عربي مترد، يسوده حالة من الجوع والعري، التي أصبح يعيشها الكثير من أبناء هذا الوطن، وهو في ذات الوقت يعبر عن موقفه مما يشاهده، ممن كانوا سبباً في هذا الواقع الأليم، والمتمثلين

(1) زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، أبي بحر ابن صفوان، أعده وعلق عليه عبد القادر محداد (د ط 1980م) دار الرائد العربي، بيروت، ص 92، 93.

(2) سورة يس، الآية 38.

(3) ديوان علي الفزاني أرقص حافيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان (د ط 2004م) ليبيا، ص 14، 15.

حقيقة في رجالات السلطة في كل بلد، الذين عليهم إيجاد الحلول للمعاناة التي يعيشها المواطن، المقهور والمسحوق، وإن كان الشاعر لا يرى أملا في هذه السلطات، وبحل هذه المشكلات إلا بزلزلة هذه الأنظمة وإسقاطها، ولعل غضب الشاعر وحنقه على هذا الواقع، هو ما جعله يستدعي سورة الزلزلة. يقول المولى تبارك وتعالى: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) فهذه الآية التي فيها كل معاني قوة التغير وشدته وبأسه، وهو ما يتطلبه هذا الواقع الراهن في نظره وما يتطلبه لتغييره، وبدونه سيعيش المواطن حالة الفقر والبؤس والشقاء المستمر الذي أصبح يلون حياته، ويرسم يومه وغده، فلا بد لهذا الألم والحرمان أن يزول، ولا بد لهذه الكارثة، أن تكون دافعا وحافزا ليصنع منه غدا أفضل، للإنسانية جميعا، أينما وجد القهر والغبن والذل والجوع، في كل مكان من هذا العالم.

ولم يكن الشاعر أحمد الشارف كأحد الشعراء المعاصرين موضوع البحث، بعيدا هو الآخر عن الاقتباس وآلياته واستخداماته في نصوصه الشعرية. وهذا ما يتضح لنا من وقوفنا على بعض قصائده، التي يقول فيها:

لَا عُذَالَ أَنْ يَقْبَلُوا عُذْرِي وَأَيَّاصَاحَ أَنَّ الْهَوَىٰ عُذْرِي
فَكَمْ مِنْ فَتَى يَهْتَزُّ مِنْ خَمْرَةٍ وَلَهْلَاهُ بَيْدَ لِسْكَرٍ أَنْ مِنْ نَشْوَةِ السُّكْرِ
ذِي يَهْوَىٰ هَوَايَ فَإِنَّهُ أَزْرِي وَأَشْدَرُ كُهُ فِي أَمْرِي (2)

تحدث الشاعر في الأبيات السابقة عن لومه وعتابه للعدال، الذين لا يلتزمون له العذر في هواه رغم أن هواه طاهر ونقي ولا تشوبه شائبة، وهو ليس الوحيد في هذا الشعور، بل مثله الكثير ممن شغل الحب قلوبهم وعقولهم حتى انتشوا بسحره وروعته، وصاروا كالسكارى من فرط ما يلاقونه من نشوة وهيام وسط هذا العالم الجميل، فكيف يلام شاعرنا على ذلك، وقد عانى ما عانى من ويلات الغرام ونار الهوى، حتى جعل كل من يقاسي مما قاساه، ويشعر بما يشعر به من من تباريح الهوى، ويشاركه هذا الاحساس الرائع هو بمثابة أخيه بكل ما تعني كلمة الأخوة من معنى، وهو من يستطيع أن يعينه ويخفف عنه بعض آلامه وعذابات تجربته، من خلال مشاركته لمشاعره وأحاسيسه، وتقديم النصح والمشورة له فيما يمر به. وقد وجد الشاعر في القرآن وآياته العظيمة ما يؤكد على هذه المعاني، وما يعبر عنها من خلال قوله تعالى على لسان سيدنا موسى علي السلام: لِي وَزَيْرًا مِّنْ أَهْلِي {29} هَارُونَ أَخِي {30} دُدُّ بِهِ أَزْرِي وَيُو{31} دَرُ كُهُ فِي أَمْرِي {3}.

(1) سورة الزلزلة، الآية 1.

(2) أحمد الشارف دراسة وديوان، علي مصطفى المصراي (ط2. 2000م) الدار الجماهيرية للنشر، ليبيا، ص 191

(3) سورة طه، الآيات من 29 - 31.

وهذه الآيات تتحدث عن حاجة سيدنا موسى للمؤازرة والمساندة والعون والمشاركة في تبليغ رسالته إلى فرعون، ودعوته إلى عبادة الله وحده، وهو أمر يتطلب هذا الدعم، خاصة بما عرف عن فرعون من استكبار وجود وإنكار للحق وهذه المساعدة والمساندة والمؤازرة والمشاركة هي نفسها ما يحتاجها الشاعر في مواجهته لعداله وخصومه الذين يلومونه ويعاتبونه و ينكرون عليه حقه في الحب، وفي السعادة الفرحة به كإنسان له مشاعره وأحاسيسه.

ولعل الاختلاف الوحيد في هذا الجانب، هو في من يقدم هذا العون والمؤازرة. فإذا كان في الآية الكريمة يدعوا سيدنا موسى ربه أن يجعل له أخاه هارون سندا وعونا وشريكا، لإيمانه وتصديقه برسالته، بذلك يكون هو الأقدر على أداء هذا الدور، فإن الشاعر قد وسع دائرة هذه الأخوة لتشمل كل من يمر بتجربته ويشعر بشعوره، مما يعد هو الآخر سببا قويا في تقديم الدعم بحكم وحدة التجربة ووحدة الشاعر. وبهذا أكد الشاعر أن الأخوة الحقيقية وحدها قد لا تكفي أحيانا لمزيد العون والمساعدة والمساندة، ويكون الإيمان بالقضية الواحدة ومعايشتها أكبر دافع على القيام بهذه المهمة. وهذا ما أكدته الآيات الكريمة وجعلته مبررا لاختيار الشاعر لها تحديدا وتضمينها إلى النص.

وهكذا استطاع الشاعر بموهبته الفنية والإبداعية، أن يخرج النص القرآني بفضل توظيفه من سياقه الديني الخاص، إلى التعبير عن قضية إنسانية عامة، يخاطب بها الشاعر، ويحرك بها القلوب. وهو غاية الإبداع، و الدقة في الاقتباس من القرآن الكريم. والإفادة من بلاغته وقوة دلالاته وعمقها، مما أعطى للنص قيمته الفنية وصورته الجمالية، رغم أن استخدام الشاعر للاقتباس النصي من القرآن الكريم لم يكن بشكل كبير في ديوانه الشعري، إما لعدم توافق الآية القرآنية الكاملة مع البحور الشعرية، بسبب طولها، الأمر الذي قد لا يتناسب مع حجم البيت أو شطره، أو لكراهية هذا النوع من الاقتباس.

الاقتباس الإشاري:

يعد الاقتباس الإشاري كأداة فنية أكثر حضوراً ووجوداً في شعر الشاعر من الاقتباس النصي، وهذا ما نراه من خلال تصفحنا لدواوين الشعراء، الذين تبناوا هذا التوجه الفني، وجعلوه وسيلة من وسائل التواصل مع التراث وتوظيفه في بعض أشعارهم. ولعل هذا الاقبال على هذا النوع من الاقتباس راجع إلى ما يمنحه للشاعر من حرية واسعة من حيث اختياره للألفاظ والتراكيب القرآنية، وكذلك ما يتيح له من حرية التقديم والتأخير في المعنى خلافا للاقتباس النصي، الذي يكبل الشاعر، ويحد من قدرته على الحركة والمناورة، بسبب قدسية النص القرآني، وعدم جواز التغيير

والتبديل في ألفاظه، أو التقديم والتأخير فيها. فما هو الاقتباس الاشاري؟ الاقتباس الاشاري كما عرفه أهل اللغة والأدب ((وهو الاقتباس الذي لا يلتزم فيه الشاعر بلفظ الآية وتركيبها))⁽¹⁾ بل يعتمد الشاعر الى المعنى القرآني لمحاولة تطويعه وتوظيفه في نصه الشعري حسب الغرض الذي لجأ بسببه لهذا الاقتباس. ومن الأمثلة على هذا النوع من الاقتباس ما جاء في قول الشاعر الحطيئة:

نَا مَا الْخَيْلُ جَاءَتْ كَأَنَّمَا أَتَتْ أَعْجَازُ الرِّيحِ مُنْتَشِرٌ⁽²⁾

والشاعر في هذا البيت يشير إلى قول المولى عز وجل: ((يَذَرُ جُوفَ الْأُجَادِثِ كَأَنَّهُمْ جَرَّادٌ مُنْتَشِرٌ))⁽³⁾ وقد أراد الشاعر من استدعاء هذه الآية الكريمة، واقتباس وكذلك من الأمثلة على استعمال هذا النوع من الاقتباس قول الشاعر أبي فراس الحمداني، في إحدى قصائده:

لَا غَيْرَ عَفَوَ إِلَّا لَهُ مِلٌّ غَيْرَ مَا قَدْ مَضَى
فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَخَيْرًا تَلَى إِنْ كَانَ شَرًّا فَشَرًّا تَرَى⁽⁴⁾

وفي هذين البيتين يتحدث الشاعر عن حياة الإنسان، وما فيها من أعمال الخير والشر، وأن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على هذه الأعمال، إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر، مصداقا لقوله تعالى: ((يَجْزِيكَ اللَّهُ بِمَا كُنتَ تَعْمَلُ))⁽⁵⁾ وقد لجأ الشاعر لاستدعاء هذه الآيات الكريمة، لتأكيد ما ذهب إليه، ولتعزيز رايه وتقوية حجته في هذا الشأن. ومن الاقتباس الاشاري أيضا قول الشاعر ابن حمديس في إحدى قصائده:

بِذَمِّ يَرْيَا السُّرُورِ كَمَا مَشَى
كَأَنَّ كِتَابِي الْيَمِينَ أَخَذْتُ وَقِيلَ لِي: ادْخُلْ جَنَّةَ بَسْطَامٍ⁽⁶⁾

ففي صدر البيت الثاني هنا إشارة إلى التضمين الاشاري من قول المولى سبحانه فَأَمَّا أَوْفَعَالِي أُرْوَتِي كِتَابُهُ بَرِيمِيهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهِ⁽⁷⁾ أما التضمين في

(1) معجم آيات الاقتباس، حكمة فرج البدرى (د ط 1980م) دار الحرية للطباعة ودار الرشيد للنشر، بغداد، ص 19.

(2) الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، عبد الهادي الفكيكي (د ط 1996م) منشورات دار النمر، دمشق، ص 40.

(3) سورة القمر، الآية 7.

(4) الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، ص 30.

(5) سورة الزلزلة، الآيات 7، 8.

(6) ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له احسان عباس (د ط 1960م) دار صائر، بيروت، ص 433.

(7) سورة الحاقة، الآية، 19.

عجز البيت فهو مأخوذ من معنى الآية الكرِيمَةُ لِرُؤُوسِهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ⁽¹⁾ وكل هذه التضمينات تأتي في سياق رغبة الشاعر في لفت انتباه المتلقي، وجعله أكثر تجاوبا مع النص لوقع هذه المعاني في نفسه، وقوة تأثيرها على قلبه. ومن هذه الاقتباسات الاشارية في الشعر الليبي قول الشاعر حسن السوسي:

كُلَّ شَيْءٍ لَهْ آيَةٌ نَاعَنْ أَتُّهُ كَبِيرُ
فَسُبْدَانُهُ فِي ظِلَامِ الدُّجَى سُبْدَانُهُ فِي ضِيَاءِ الْبُكُورِ⁽²⁾

لقد استلهم الشاعر صدر البيت، من معنى عدد كبير من آيات القرآن الكريم الدالة على وجود الخالق وعلى قدرته ومنها قوله تَعَالَى: فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ⁽³⁾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى آيَةٌ فِي السَّمَاءِ وَآتِ الْأَرْضُ ضَرْبًا يَمْرُؤُونَ عَلَيْهَا⁽⁴⁾ فهذه الآيات جميعا تدل على وجود الباري عز وجل، الذي شهد الكون كله على حكمته وقوته، وقدرته العظيمة التي تجلت في كل شيء يسبح له ويخضع لسلطانه، وهو ما أراد الشاعر إيضاحه ولفت الانتباه إليه، مستوحيا هذه المعاني من الآيات القرآنية.

ويقول الشاعر راشد الزبير، في قصيدة له بعنوان: مداعبة صديق:

لَا قَاسِرَ لَأَبٍ مَاذَا كُنْتَ تَنْتَظِرُ
لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ⁽⁵⁾

فالشاعر في هذا البيت أراد أن يلفت نظر صديقه إلى قساوة قلبه، وإلى غلظة طبعه التي لم تترك للصحة والمودة مكانا في نفسه، ولم يجد الشاعر للتعبير عن حالة العدم والترك التي صارت إليه صداقتهما، بسبب هذا الطبع في صديقه، إلا هذه الآية القرآنية التي يقول فيها المولى عز وجل: وَلَا تَذَرُ⁽⁶⁾. فالآية تجسد ما ذهب إليه الشاعر من معنى ومن دلالة، رأى فيها من بلاغة التعبير وقوة ألفاظه ما يتناسب ومقاصده، وغرضه الشعري.

ولم يكن شاعرنا أحمد الشارف بعيدا عن هذه الاستخدامات والتوظيفات الاشارية في أشعاره. فهي يقول في إحدى قصائده:

خَبَلُ طَوْرِي وَعَرِيْبُ حَبِيْبِي
رُوحُ نُطِيرٍ بِلَا جَنَاحٍ
مُ فِي الْمَدْحَبَةِ نَصَبَ عَيْنِي
اتَّصَلَتْ بِكُمْ فِي حَرِّينِ

(1) سورة الحجر، الآية 46.

(2) قضايا الانسان في الشعر الليبي المعاصر، سليمان زيدان (د ط 2006م) مجلس الثقافة، سرت ليبيا، ص 232، 233.

(3) سورة الحجر، الآية 77.

(4) سورة يوسف، الآية 105.

(5) قضايا الانسان في الشعر الليبي المعاصر، ص 232، 233.

(6) سورة المدثر، الآية 28.

تُ إِلَيْكُمْ ظُبَيَاتُ قَاعٍ وَصَدَالِهَآ أَسَدٌ عَرَبِينَ
تَرْتَمُّ بِأَلْمَدَاسِ بْنِ يَامَ عَنَبِيْلَ الْجَحَانِ عَلَى طَبَعِ الدُّسَيْنِ
وَذَاتِ السَّجْعِ تَلَدْنُ فِي غَوَاهُ عُرْبَةً عَنِ الشَّوْقِ الْكَمِينِ
وَقُلْ لِلْعَازِلِينَ فَلَا تُمْأَرُ وَلَا يُدْكُمْ دِينُكُمْ وَإِلَيَّ دِينِي (1)

يصور لنا الشاعر في هذه الأبيات حالة الشوق التي يعيشها، وروحه التي تهفو إلى أحبته الذين يذكرهم في كل لحظة وحين، ولا يفارقون خياله. برغم ما يحول بينه وبينهم من ظروف وما يقف دون وصالهم من حواجز، لا يجد ما يخفف عنه وطأتها إلا الأنغام والألحان والأغاني التي تعبر عن شوقه ولوعته وشجونه. وفجأة نراه يعود إلى حديث العذال في غضبة وفي نبرة حادة، تفصح عن تحد وتصد لهم غير أنه سرعان ما يعود إلى ما يشبه الاستسلام حين يأتي بمعنى ومضمون الآية الكريمة التي يقول فيها المولى عز وجل {لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} (2) كأنه أراد أن يقول بمضمون هذه الآية الكريمة، لكم طريقكم ولي طريقي، أولكم حالكم ولي حالي، مما أضعف هذا التراجع سبك البيت، وأفقده قوة زخمه التي بدأ بها الشاعر حديثه، حين عبر عن جده وحزمه في مواجهة هؤلاء العذال، وبهذا جاء هذا التضمين في غير موضعه، إلا من حيث الوزن والقافية.

ويقول الشاعر في أبيات أخرى وفي إطار اقتباس من اقتباساته وإشارات الشعيرية:

لَحَايٍ تَحْرُسُهَا صِرَافَاتٌ ذَلَّاقٌ وَاسِعَةُ الدَّطَّاقِ
فَتَاةٌ لَا تُرِيدُ سَوَى اقْتِرَافِ لَنْزُوجٍ لَا يُفَكِّرُ فِي الطَّاقِ
وَيَأْبَى أَنْ يُضَارَرَ هَاشِمِيٍّ غُمَّهَا عَلَى تَرْكِ الصِّدَاقِ
وَذَيْرٌ مِنْ وَصَالِهِمْ مَا انْقُطِعَ الْإِغَا كَانَ الْمَصْدِيرُ إِلَى فِرَاقِ
وَلَمْ يَكُنْ أَرْتَهَاطًا بِشَيْءٍ إِذَا ارْتَبَّطَ بِوَدِّ غَيْرِ بَاقٍ
يَرِيدُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مَا حَادِيَ ثَلَاثُومٌ عَلَى الْمَوَدَّةِ وَالْوَفَاقِ (3)

يسعى الشاعر في هذه الأبيات إلى التأكيد على أهم الأسس والقواعد التي يجب أن تبنى عليها الحياة، ويأتي في مقدمتها الحب والتفاهم، والعواطف النبيلة الصادقة، التي تنتشدها كل فتاة وتتمناها كل امرأة.

وبما أن شاعرنا قد تقلد مناصب عدة في سلك القضاء فقد مرت عليه الكثير من القضايا المتعلقة بأمور الزواج والطلاق والصداق والمودة والضرار وغيرها، فما هو في الأبيات يعرض لنا جانباً منها، أو بعضاً من أسبابها وحلولها، مستلهما في

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 144، 145.

(2) سورة الكافرون، الآية 6.

(3) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 253.

ذلك النص القرآني المتعلق بهذه المسائل والذي يقول فيه البارئ عز وجل ﴿لَنْ أُنْفِذُكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ تُشْكُرُونَ﴾ (1) وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحْكُمُ لَنْ تَرَى ثَوَابَ الرَّسَاءِ تَعُكِّلُوهُمْ وَلَوْلَا هُبُوا بِبَعْضٍ مَا أَتَيْتُمُوهُمْ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ نَبِيٍّ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (2) وقوله تعالى ﴿لِيُضِلَّ لِلنَّسَاءِ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ بِمَعْرُوفٍ وَفَسِدُوا وَهُمْ يَدْرِكُوهُمْ ضَرَّارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (3).

من هذه الآيات الكريمة استقى الشاعر مضامين أفكاره ورؤاه التي أراد التعبير عنها من خلال ذكره لبعض الأحكام الدينية، كالزواج والطلاق والضرار والصداق والمودة الأخلاق، فهي مدار أبياته الشعرية، التي جاءت أساسا تصويرا لمشاهداته كشاعر وقاص، أراد أن يصيغ مواقفه منها في قالب شعري، غاب عنه الكثير من الجوانب الفنية، بسبب الإغراق في المباشرة، وغياب العناصر الإبداعية التي يقوم عليها النص الشعري إلا من حيث الوزن والقافية، مما جعل النص لا يعدو أن يكون نصائح مسداة للأزواج، أو للراغبين في الزواج عند إقدامهم عليه، أو لعل وظيفة الشاعر القضائية، هي من كان لها الأثر الأكبر عند صياغته لهذه الأبيات، وبرغم ذلك يظل هذا النص تجربة شعرية، حاول الشاعر من خلالها استلهاً وتوظيف بعض الأحكام الدينية، والأخلاقية والاجتماعية، التي تضمنها التراث، وحاول الشاعر الاستفادة منها ومن مقوماتها.

وكما كان للشاعر أحمد الشارف تضمينات قرآنية للنص العاطفي والديني، فقد كانت له تضمينات أخرى في قصائده الوطنية، التي شغلت حيزا كبيرا من شعره، وذلك بسبب ما يمر به وطنه في تلك الفترة من محنة، فرضها الواقع الاستعماري البغيض، الذي حل به فترة طويلة من الزمن، لم تنته إلا بعد كفاح مرير، وتضحيات جمة، قدم فيها الليبيون قوافل من الشهداء. وقد كان للشاعر أحمد الشارف دور كبير في تلك المرحلة، تمثل في قصائده الوطنية التي ألهمت حماس الليبيين، ودفعتهم إلى ميادين الجهاد، ولعل هذه الأبيات الشعرية تعد جزءا من قصائده في هذا الشأن. يقول الشاعر:

لِيَبْدِيَ لَمْ تَرَوْ ضَهَاءَ وَطَنًا لَمْ يَكُنْ هَا يَجْرِي بِأَيْدِينَا
مَلَأَتْ أَرْضًا لَا نَسُودُ بِهَا نُونٌ لَهُمْ فِيهَا مَسَاجِدُنَا

(1) سورة الروم، الآية 21.

(2) سورة البقرة، الآية 229.

(3) سورة النساء، الآية 19.

عُرُوبَةً أَنْ يَنْتَابَهَُا خُورٌ ۚ سُونَ مِنَ الْقَوْمِ الْأَذَلِّينَا
نَحْنُ الْأَشَاوِسُ فِي بَدْوٍ وَفِي دَضْوَرَكِلٍّ أَرْضٍ لَنَا كَانَتْ مَيَادِينَا
نَحْيَا بِعِزٍّ كَمَا كُنَّا وَإِنْ قُدَّتْ نَحْفَلَقِيَاهُ الذِّكْرُ ۚ نَكْفِينَا
وَإِنْ كَانَ لِلْمَوْتِ يَوْمٌ لَا يُؤْخِرُفُهُمَا الْقَعُودُ عَنْ الْأَقْدَامِ يُنْجِرِينَا
لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ يَصْدَحُبُنَا عِزٌّ أَوْ مَوْتٌ يَلَا قِينَا
وَحُمْلَةُ الْقَوْمِ لَا تُذْنِبِي عِزًّا مُعْمِلُ الْكِفَاحِ ۚ لَوْ كَانُوا كَثِيرِينَ
قَدْ يَخْذُلُ اللَّهُ أَقْوَامًا وَإِنْ كَثُرُوا أَيْمَنُحُ اللَّهُ نَصْرًا لَيْلًا قَلِيلًا
وَإِذَا اتَّحَدْنَا عَلَى صِدْقِ الْأَخَاءِ وَتَوَحَّدَ الْجُهُودُ فَقَدْ نَلْنَا أَمَانِينَا (1)

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن رفضه لحياة الذل والاستعباد، وأن الحياة لا قيمة لها إلا بالحرية وتحت رايتها في وطن لا يسود فيه إلا أهله، ولا يحكمه إلا شعبه، فالعرب من بدو ومن حضر كانوا على مدى التاريخ أهل عز وكرامة وإباء تهون عليهم نفوسهم في سبيل المعالي والمجد و القيم العظيمة، التي لا تطيب الحياة إلا بها، وأن الموت دونها شرف عظيم لا يحظى به إلا أصحاب الهمم العالية، الذين لا يحرصون على الحياة بقدر حرصهم على الاستشهاد في سبيل نيل أمانيتهم في الحرية والكرامة والعزة، مهما تعاضمت قوة الباغي وشوكته، فبايمانهم وقوة إرادتهم سيكون النصر حليفهم وإن قل عددهم، وقلت عدتهم. فقد قال المولى سبحانه وتعالى: كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (2) هذا هو المعنى القرآني الذي أشار له الشاعر في البيت التاسع، تأكيداً منه على أهميته في هذه المرحلة الجهادية التي يخوضها أبناء الوطن، ويحتاجون فيها إلى كل ما من شأنه أن يقوي عزائمهم، ويحثهم ويحمسهم على قتال عدوهم كصف واحد، إذا أرادوا تحقيق أمانيتهم، والوصول إلى غاياتهم في الاستقلال وحر عدوهم، واسترداد عزتهم وكرامتهم وحقوقهم، التي ضاعت على يد المستعمر الإيطالي، الذي دنس الأرض، وهتك العرض و الشرف. فلا بد إذا من تكاتف الجهود، ورص الصفوف، وشحذ الهمم للنصر، لنيل الأمان وال آمال، وتحقيق الحلم والطموحات.

أما الجانب الاجتماعي وهو غرض شعري، فقد استهدفه شاعرنا، ونال حظاً و نصيباً وافراً من أشعاره ومن عناوين قصائده، التي تناولت قضايا عدة، اجتماعية وإنسانية. من ذلك على سبيل المثال تشجيعه للرياضة والإشادة بدورها في بناء الجسم والعقل، عبر أشعاره التي قرضها في مناسبات عدة، كافتتاح الأندية الرياضية، وإقامة المناشط العامة التي كانت تقام بين الفينة والأخرى، هذا إلى جانب تشجيعه للفن والصحافة وإبراز دورهما في نشر الوعي بين أفراد المجتمع، وتسليط الضوء

(1) أحمد الشارف ديوان ودراسة، ص 111

(2) سورة البقرة، الآية 249.

على قضاياها الحياتية والوطنية، كما حاز الشباب باعتباره عماد الأمة وقوتها، على مساحة واسعة من أشعار الشاعر، ومن اهتماماته، ولهذا نراه في مناسبات كثيرة يحثهم على طاعة الله، وعلى العلم والمعرفة، والتحلي بكمال الأخلاق والفضيلة وبر الوالدين، والحرص على رضائهما، والرحمة بهما والعطف عليهما، ومد يد العون لهم عند الحاجة، فهي جميعها أسباب تقرب العبد من ربه، وتمنحه رضاه ومحبة الدنيا، والفوز بجنته ونعيمه في الآخرة. ولعل في هذه الأبيات، ما يؤكد على هذه المعاني والقيم، وما يبين لنا من حرص واهتمام أولاه الشاعر لهذا الجانب الاجتماعي والإنساني في شعره. يقول في قصيدة بعنوان "رسالة شعرية" من والد إلى ولده:

بُرِّيدَ وَأَنْتَ ثَرِيْدُ يَ وَبَيْنَكَ شَأْوَ بَعِيدِ
وَإِثْرِي خَلَقْتُ لِعَصْرِ مَضُونَتِ خَلَقْتُ لِعَصْرِ جَدِيدِ
طَعَامِي كَمَا أَشْتَهِي وَاحْوَلْتُ الَّذِي تَشْتَهِي أَنْ يَزِيدَ
ثَرْبُ الْمَلَأَقِ فَوْقَ الصُّوْنِ أَبَى الْأَصَابِعِ فَوْقَ الدَّرِيدِ
وَهَا أَنْتَ تَقْفُزُ فِي الْمَشْيِ قَفْزَ هَامِشِي رُوَيْدَارُ وَيَدُ
وَمَا كُنْتُ أَعْرِفُ حَلَقَ اللُّوْحَانِي تَرَى الْحَلَقَ أَمْرٌ أَكِيدُ
كَلَامَ نَائِمٍ أَعْنَدَهُ قَلْعُ نَيِّ الْقَدِيمِ وَمَنْكَ الْجَدِيدِ
وَكُلُّ جَدِيدٍ كَمَا أَقْدَتِي يَدُ مَنْ ذَا الَّذِي لَا يَبِيدُ
لَكَ الْإِذْنَ فِي جَبْرِ مِاقَاتِي تَقِيدُ بِلَعْنِ أَوْ تَسْتَقِيدُ
بُنَى اسْتَقَمَ يَابُنَى اسْتَقَمَ مَنْ هَوَلُ يَوْمِ الْوَعِيدِ
وَكَنْ لِي عَلَى جَانِبِ لَوَيْنِ تَكْ لِي مَقَمٌ مِمَّنْ حَدِيدِ
وَخُذْ مَا كَفَانِي مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ وَالْجَهْلِ مَا طَلَبْتَ الْمَزِيدِ⁽¹⁾

تناول الشاعر في هذه الأبيات قضية أزلية، وهي قضية الصراع بين الماضي والحاضر، بين القديم والجديد، بين الشيخوخة والشباب.

وإذا كان الشاعر في نظر نفسه يمثل الماضي بكل عاداته وتقاليده، وثقافته ومعارفه، وضعفه وغيابه، فإن ابنه في نظره يمثل الحاضر بكل تطوره وتجديده، وقوته وعنفوانه، والبون شاسع وكبير كما أراد الشاعر تصويره في كل شئ ابتداء من المأكَل وأصنافه وطرق تناوله، إلى المظهر والشكل الخارجي وما طرأ عليه من تبدل وتغير، ثم وصف حالة الضعف التي يمر بها، وحالة القوة لدى الابن، وكلها في نظره أمور بديهية فرضتها طبيعة الحياة، وتقلبات الزمن، وهو قانع بذلك وراض به كل الرضا، برغم ما نلمسه في لغة الشاعر من نبرة حزينة وتحسر متواصل على ما ذهب من شبابه وقوته وما حل محله من أسباب الضعف وأشكاله، وهذا يتضح لنا من عدة ألفاظ وعبارات تقابلية مثل: "مضى وجديد - طعام احد - تشتتني أن يزيد -

(1) أحمد الشارف ديوان ودراسة، ص 314.

أنت تقفز وأنا أمشي رويدا - اللحي والحلق - جديد ويبيد - ما فاتني - تستفيد " كل هذه المعني تدل على حالة الانكسار والتحسر والمرارة في نظرنا لدى الشاعر، وبرغم ذلك حاول الشاعر من خلالها أن يجسد ويصور مشاعره وأحاسيسه، بكل صدق وشفافية في أسلوب رائع. ثم ينتقل الشاعر إلى إبداء النصيحة إلى ابنه، ومحاولة نقل خبرته وتجاربه في الحياة إليه، بدء من النصح بالاستقامة على الطريق المستقيم المؤدي إلى رضوان المولى عز وجل، للنجاة من غضبه ومن هول يوم لقاؤه إلى حسن معاملته والرفق والرحمة والإحسان به. يقول المولى سبحانه وتعالى:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِنَّكَ الْكَبِيرَٰ أَدَدُهُمَا أَوْ كَلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا⁽¹⁾ فهذا النص القرآني يشير إلى أهمية بر الوالدين، وحسن معاملتهما، فرضاهما من رضى الخالق جل وعلا، وهي معاني ربانية وقف الشاعر عليها، كما وقف علي ألفاظ قرآنية أخرى استلهمها من الذكر الحكيم، تدل على القسوة والعنف والبطش والقمع، في محاولة لتوظيفها بما يخدم غرضه. يقول تعالى: ﴿مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾⁽²⁾ في هذه الآية الكريمة يصف المولى عز وجل حال أهل النار، وما يقاسونه فيها من أصناف العذاب وألوانه، والذي كل ما أرادوا الخروج منه، قمعهم زبانية جهنم بسيطا من حديد، أعادتهم مرة أخرى إلى ما كانوا فيه إلى ما شاء الله، عقابا لهم على ما اقترفوها في الدنيا. ولكن ما الرابط بين المعنى القرآني، وبين ما أراده الشاعر من استدعائه لهذه الآية الكريمة؟ الحقيقة أن الرابط الظاهري الذي يبدو لنا من الوهلة الأولى، هو نصح الشاعر لابنه ورغبته في أن يكون لنا معه في تعامله، رقيقا معه في تصرفاته، رحيمًا به وبشيخوخته، بعيدا عن أشكال القسوة والحدة والبطش والقمع في معاشرته له. أما المعنى الباطن والدلالة الخفية التي نراها نحن، ونلمسها من خلال ربطنا بين النص القرآني، والنص الشعري بشكله العام، فهي تختلف كلية، ومغايرة تماما للمعنى الظاهر، وذلك من خلال تتبعنا لحالة التحسر وتلمسنا لحالة الضعف والوهن التي يمر بها الشاعر، والتمني الخفي في العودة إلى الماضي، وإلى الشباب والحيوية والقوة والنشاط والأحلام. غير أنه يستيقظ في لحظة ما على الحاضر، وعلى واقعه المرير، فيدرك أن ما فات فات، وأن عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء أبدا فتصدمه هذه الحتمية، وتنغص عليه هذه الحقيقة، فتتبدد الأحلام، وتضيع الأمنيات ولا يبقى إلا حاضر راهن، يقمعه بسيطاه، ويعيده إلى سجنه، الذي يحاول الخروج منه بين الفينة والأخرى عبر أحلامه، ولكن الواقع يقف له دائما بالمرصاد، ليجدد له الألم ويصحى فيه المعاناة. هذه الصورة الحقيقة لحالة الشاعر كما نراها نحن، وكما ترسمها تعابير

(1) سورة الاسراء، الآية 23.

(2) سورة الحج، الآية 21.

وألفاظه التي صاغها في نصه الشعري، الذي لا نراه إلا انعكاسا لحالته الشعورية العميقة، الكامنة في نفسه، والمتسترة وراء البنية الظاهرة للنص.

وإذا كانت هذه صورة من صور الاقتباس الإشاري من القرآن الكريم، فإن لشاعرنا صوراً أخرى، وأشكالاً أخرى، من صور التضمين، التي حاول عبرها الاستفادة من إعجاز القرآن وبلاغته، وتوظيفه بما يخدم نصه، ويمنحه القدرة على نقل تجربته بكل أبعادها ومدلولاتها، ومنها هذه الأبيات الشعرية التي يقول فيها:

إِذْ حَرِّمُوا شَرْقًا تَبْهَجَ مُشْرِقًا وَغَرْبًا تَبْهَجَ مُغْرِبًا
لَئِنْ عَذَّبُونِي فِي جَحِيمٍ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ فِي مَنَهِجِ الْحُبِّ يُعَذِّبُ
قُلُوبَ عَالِمِ اللَّاحِظِينَ جَهَنَّمَ حُبُّهُمْ صَبِيحَ مَنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
أَحْرَبَةً قَلْبِي مَا لِقَلْبِي سِوَاكُمْ لَمْ أَرَهُ مِنْ حُبِّكُمْ يُقَالِبُ
مُضَاقَّتِ عَلَيَّ مَذَاهِبِي يَمْنُ مِنْ أَيِّ الْمَسَالِكِ ذَهَبُ⁽¹⁾

هذه الأبيات، تنتقل صورة أخرى من تجارب الشاعر في ميادين الحب والغرام. فهو العاشق الولهان الذي يبحث عن رسم صورة بهية رائعة، فيبحث في معاجم اللغة وأساليبها الفنية لرسم هذه الصورة، وكيف لا ومحبوه قد غمر الكون بنور جماله وبهاء طلعه، فعمت البهجة وارتسمت الفرحة على كل معالمه وأركانه، وهذا ما يخفف عنه ما يلاقه منه من آلام وجراح بل إن معاناته في سبيل القرب منه والعيش بين أحضانه غاية في البهجة والسعادة التي لا يدركها إلا المحبون، أما من يمعنون في لومه وعتابه ممن يضعون اللحي، ويلبسون الجلابيب ويدعون الدين، فهم بعيدون كل البعد عن فهمه الصحيح، ووجهه الانساني، ولو فتحو قلوبهم للحب وتجرعوا من كأسه واكتنوا بناره، لأصبحوا خائفين منه ومترقبين، كما فعل سيدنا موسى عليه السلام بعد قتله للعبراني، وخوفه في اليوم الثاني من أهل هذا العبراني، ومن فرعون نفسه بعد أن يعلم بفعلته، غير أن المولى سبحانه وتعالى قد نجاه من كيدهم، وأرسل له رجلاً صالحاً أخبره بأن الملائكة يتآمرون عليه لقتله، ونصحه بالخروج من المدينة خوفاً عليه فخرج. يقول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ كُلُّ مَسْجِدٍ لِلَّهِ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ عِزٍّ شَيْءٍ﴾ (2). وقد حاول الشاعر الاستفادة من هذه القصة ومن نصها القرآني، عبر محاولة الربط والتقريب بين خوف وهلع سيدنا موسى عليه السلام في ذلك الموقف، وبين رجل الدين الذي لم يجرب

(1) أحمد الشارف دراسة وديون، ص 189.

(2) سورة القصص، الآية 18.

الحب، ولم يكتو بناره التي تشبه نار جهنم في نظر الشاعر، وإلا لملأ الخوف والرعب قلبه كما فعل بسيدنا موسى عليه السلام، مع اختلاف طبعا دواعي الخوف وأسبابه عند الاثنين، وهو الأمر الذي لم يلتفت إليه الشاعر، ولم يعره اهتماما برغم أهميته.

فحالة الخوف عند سيدنا موسى عليه السلام هي حالة حقيقية قد عاشها ومر بتجربتها فعليا، خلاف حالة الخوف التي حاول الشاعر رسمها وتصويرها لرجل الدين الذي لم يقع في الحب ولم يجربه بعد، وهذا الفارق ينعكس بالضرورة على صدق المشاعر وقوتها لدى الاثنين، وهو أمر يفقد تجربة الشاعر بعض واقعيته لدى المتلقي، ويقلل من تفاعله مع النص، وبرغم ذلك لا نستطيع أن نقول إلا أنها تجربة فنية، وإن جانبها بعض التوفيق من وجهة نظرنا.

وكما وظف الشاعر النص القرآني في نصوصه العاطفية، فقد وظفه أيضا في المدائح النبوية التي صاغها وتفنن في إبداعها، عند مدحه لرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد كان لهذا الشاعر مع هذا التوجه الفني وقفات ووقفات، جاءت تعبيراً عن حبه وتعلقه برسوله الكريم، كما كان مع غيره من الشعراء الأوائل الذين تناولوا سيرة الرسول الكريم، وأخلاقه العظيمة وصفاته النبيلة كوسيلة للتشفع به والتقرب به من المولى عز وجل. وقد كانت قصيدة الشاعر كعب بن زهير من أوائل القصائد التي حظيت بالإعجاب والثناء عليها من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومن الشعراء أيضا الذين ساروا على نهجها، واتبعوا طريقها عبر عصور مختلفة كان من أشهرها وأبرزها قصيدة محمد سعيد البوصيري الميمية المسماة بـ " البردة " فهي من أجمل قصائد المديح النبوي نظرا لروعة معانيها، ودقة ألفاظها، وحسن سبكها، وبراعة نظمها وعاطفتها الصادقة المتميزة، وقد عارض فيها قصيدة كعب بن زهير ومطلعها:

تَذَكَّرَ جَرِيرٌ أَنْ يَذِي سَمِي مَعَا جَرَى مِنْ مُقَلَّتِي بِدَمٍ (1)

ثم سار الشعراء من بعده على هذا النهج، واقتفوا هذا الأثر حتى يومنا هذا.

ولم يكن شاعرنا أحمد الشارف ببعيد عن هذا الموضوع، ولا عن ألوانه وفنونه، فها نحن نراه يصوغ قصيدته التي ضمنها بعض الآيات القرآنية، كوسيلة من وسائل تأكيد المعنى، وإيضاح دلالاته ومنها هذه الأبيات التي يقول فيها:

هـ مَآ حُمِّمْتُ لِمُحَمَّدٍ وَلَا نَالَ الْوَرَى قَوْلَ إِلَهٍ
لَا جَذَبَ الْقُلُوبُ لِبِهِ قُوفَ عَلَى حَقِيقَةِ دَالِهِ

(1) ديوان محمد سعيد البوصيري، عمر فاروق الطباع (د ط 2004م) بيروت، ص 213.

عَثَّتْهُ الْمَكَارِمَ وَالْعُلَاةَ يَفُ الدَّقِّ تَدَّتْ ظِلَالَهُ
مَازَالَ جَوْ الْجَاهِلِيَّةَ مَظْلَمَ حَلَّى اسْتَهْلَ الثُّورُ بِاسْتِهْلَالِهِ
وَعَدَّتْ بِهِ سُبُلَ الْهَدَايَةِ تَدَوُّتْهُمْ هُلُوْ بِثُورِ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ
وَإِذَا تَحَدَّثَ لَيْسَ يَنْطِقُ عَنْ هَوَى عَجَزَ الْمَعَارِضِ نَعْبَدِيْعَ مَقَالِهِ
وَإِذَا الْفَتَى مُدَحَّ النَّبِيِّ فَقَدَّرَ أَعْيُنُ الدَّقِيقَةِ لَا يَطْرِيفُ خِيَالِهِ
أَبَتْ السَّعَادَةُ ثُقَارِقَ مُسْلِفِي قَلْبِهِ حُبِّ الدُّبِيِّ وَالْإِلَهِ (1)

تدور هذه الأبيات في مجملها عن وصف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والثناء عليه وإبراز مناقبه وصفاته، ودوره في إخراج البشرية بفضل المولى عز وجل من طريق الضلالة إلى نور الهداية، فهو المبعوث رحمة للعالمين، وإماما للمتقين الذين يرجون رحمة ربهم، ويطمعون في الظفر برضاه، ولا يكون ذلك متحققا إلا بإتباع دعوة رسوله، والاقتراء بسنته، فهو الذي لا ينطق عن الهوى، وما حديثه وأقواله إلا من وحي الباري عز وجل. يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَنْطِقُ عَنِ الْهَدَىٰ﴾ {هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (2) وهذه إحدى المعاني العظيمة التي أراد الشاعر الإشارة إليها، والتأكيد على مصداقيتها وحقيقتها، من خلال استدعائه للنص القرآني، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو كلام رب العالمين الذي لا تحقق سعادة المسلم إلا بإتباع منهجه، والسير على هدي رسوله ومحبته.

هكذا تحدث الشاعر من خلال الاقتباس بنوعيه النصي والإشاري، عن قضايا كثيرة، تنوعت بين الأغراض الوطنية والاجتماعية والشرعية والعاطفية، وكلها مواضيع حاول الشاعر فيها توظيف النص القرآني وفق هذه التقنيات، بما يحقق الغايات التي يهدف إليها، والرؤى التي يطمح للتعبير عنها في أشعاره.

القصص القرآني:-

امتاز القصص القرآني الكريم بسمو غاياته، وشريف مقاصده، وعلو مراميه بما حواه من أبواب كثيرة تهتم بحياة الإنسان وسلوكه وطباعه، وبنشر الحكمة والأدب بطرق مختلفة تتسم أحيانا بالحوار، وأحيانا أخرى بالحكمة والاعتبار، والتخويف والإنذار، كما حوى هذا القصص تاريخ الرسل مع أقوامهم، والشعوب مع حكاهم. نقل كذلك أخبار أقوام هدوا إلى الحق، وأقوام أخرى ضلوا الطريق، فكان مصيرهم الهلاك، ووقع عليهم العذاب فأصبحت سيرتهم مضرًا للأمثال، ومثارا للتأمل والتدبر. جاء هذا كله في أسلوب بديع، وألفاظ رائعة، وتصوير مثير يأخذ بالأسماع

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، 350.

(2) سورة النجم، الآية 3.

والقلوب، ويستتوي العقول والنفوس، ليصبح هذا القصص القرآني مجالا خصبا للإبداع الأدبي بشكل عام، والشعري بشكل خاص، سواء من خلال تمثيل أساليبه الفنية والإبداعية، أو التأسي بأصحاب تلك القصص، ومقارنة الشاعر حاله بحالهم، والتعبير كذلك عن معاناته، وما يقع عليه من ظلم وإساءة، أو غير ذلك من أمور الحياة وملابساتها عن طريق هذا التوظيف. ((القص في اللغة المتابعة أي تتبع أثر الشيء))⁽¹⁾ وقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾⁽²⁾ أي اتبعني أثره. وقوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرَدْنَا عَلَى آثَارِهِمْ مَا قَصَصْنَا﴾⁽³⁾ أي إتباعا.

أما في الاصطلاح: ((فالقص هو إعلام بالخبر، أي تتبع الحديث شيئا فشيئا))⁽⁴⁾ كما في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ أَدْسَنَ الْقَصَصَ طَرَحُ حَبِيبًا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ﴾⁽⁵⁾.

ونلاحظ من التعريف اللغوي والاصطلاحي للقص إن القصص القرآني جاء من "القص" وهو أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التي عرضها القرآن، إذ إن ذلك أشبه بقص أثر الشيء وتتبعه، ثم الوقوف عليه بذاته لا على صورته أو ما يشبه صورته، ويدل هذا على أن القرآن الكريم لا يدخله شيء من الخيال الوهمي المبالغ فيه، بل وردت قصصه واقعية حقيقية فهو منزّه عن الخيال المجافي للحقيقة، فضلا عن عرض القصص بطريقة فنية قصصية و ليست إخبارية تقدم الأخبار المجردة خالية من التصوير الفني، والإثارة النفسية، ولم يسمها حكايات لأنه لم يسردها كما تسرد الحكايات التاريخية في كتب التاريخ مجردة، مما يأخذ الأسماع والقلوب من غوص إلى مكامن الشعور، وتشخيص للحادثة، وتنسيق في العرض، وإيقاع في الموسيقى اللفظية))⁽⁶⁾ فهناك فرق بالتأكيد بين الخبر والقصة من الناحية الفنية. فالقصة تقوم على العناصر الفنية القائمة على التصوير الفني، والإثارة النفسية، واجتذاب الأسماع والقلوب، فضلا عن تنسيق العرض والحوار، والإيقاع والتناغم الموسيقي اللفظي، وهذا ما انطوى عليه القرآن الكريم، وبذلك جاءت قصصه بأسلوب الخطاب القرآني المحكم في سرده وعرضه وحواره، وهو ما كان له أثره في الشعراء، لأن القصة القرآنية ((ظلت وما زالت تلهم الأدباء بصورة عامة، والشعراء بصورة خاصة دروسا سامية تغني قاموسهم اللغوي، وخيالهم الرائع، حيث تسبح فيه

(1) لسان العرب / مادة (القصص). والقاموس المحيط / مادة (قص).

(2) سورة القصص، الآية 11.

(3) سورة الكهف، الآية 64.

(4) القصص القرآني في الشعر الأندلسي، أحمد حاجم الربيعي (د ط 2001م) دار الشؤون الثقافية، بغداد، ص 9.

(5) سورة يوسف، الآية 3.

(6) سيكولوجية القصة في القرآن، التهامي نوره (د ط 1974م) الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، ص 86.

صور جميلة، وأهداف ومثل عليا)) (1) والشعراء الليبيون كغيرهم من الشعراء في الوطن العربي، استلهموا القصة القرآنية ووظفوها في أشعارهم، توظيفا شعريا يتسم بالإيجاز ويميل إلى الإشارة والتلميح دون التفصيل، وهذه الخاصية هي سمة من سمات الشعر وإحدى خصائصه، فالشاعر ينظر في كثير من الأحيان إلى أن المتلقي له دراية بالقصة وتفصيلها، مما يجعل ما يطرحه من أفكار ورؤى واضحة لديه، ومن هنا كان تناول الشعراء للقصة فيه الكثير من الجوانب الجمالية والإبداعية في أسلوبهم، وفي طرق استدعائهم للقصة القرآنية، وكيفية الافادة منها في تقوية معانيهم، وتوضيح مقاصدهم، فالقرآن الكريم بكل ما يملكه من طاقات شاملة وكاملة، يمثل الأنموذج الذي يجب أن تقاس عليه الأمور. وسنحاول من خلال تتبعنا لأشعار الشاعر أحمد الشارف الكشف عن المضامين القصصية التي استمدتها من القرآن الكريم، ومحاولة التعرف على طبيعة هذا التعامل، والدافع لاختيار هذه القصة دون سواها، هذا إضافة إلى معرفة الرابط بين القصة المستدعاة وطبيعة الموضوع.

فمن القصص القرآنية التي تناولوها في أشعارهم، واستدعوا نصوصها ومضامينها قصة سيدنا موسى عليه السلام، وقصة عصاه وما فيها من الآيات الدالة على قدرة المولى سبحانه وتعالى وعظمته، فبهذه العصا فلق بقدرة المولى عز وجل البحر، وجعله كالطود العظيم، وشق في وسطه طريقا لبني اسرائيل، حينما أدركهم فرعون وجنوده وحصرهم إلى البحر، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام في قوله **فَلَمَّا تَرْتَعَلَيْنِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَاقِيهِ تَجِرْنَا ﴿٦٢﴾ مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ فَمَا تَرَكْنَا إِلَّا خَرِبِينَ ﴿٦٤﴾ جِئْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ تَرَكْنَا إِلَّا خَرِبِينَ ﴿٦٦﴾** وبذلك نجى الله موسى عليه السلام ومن معه، وأغرق فرعون وجنوده. وقد استلهم الشاعر الرصافي البلنسي، هذه القصة ووظفها في الاحتجاج على قوله، ليقوي حجته الشعرية، واثبات رأيه في قوله:

دَعَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ مُجْهَدًا وَحَدَّكَ أَعْنَاقُ الْجَمَاهِيرِ
لَا تَذْهَبُ لَنْ تَقْلِيلَ أَخْوَهِنِ بِلِأُمُورٍ وَلَا يَرْكُنُ لِتَكْبِيرِ
فَالْبَحْرُ قَدْ عَادَ مِنْ ضَرْبِ الْعَصَا لَأَيُّبُصْلُ قَدْ غَرَقَتْ مِنْ قَوْرِ تَنْوَرِ (3)

فقد وجد الشاعر في هذه القصة قدرة الله التي لا تقهر، فاستلهمها ووظفها في إثبات أن القوة لا تكمن في الكثرة، وإنما في الأسباب التي يهيئها الله بقدرته، فيتربت

(1) الاشعاع القرآني في الشعر العربي، محمد عباس الدراجي (د ط 1986م) عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية، بيروت، ص 151.

(2) سورة الشعراء، الآيات من 61 إلى 66.

(3) ديوان الرصافي البلنسي، جمع وتقديم احسان عباس (د ط 1983م) دار الشروق / بيروت، ص 96.

عليها النصر والنجاة، كما هدى الله موسى عليه السلام حينما ضاقت به الأرض بما رحبت، فشق له ولقومه وسط البحر طريقا يبسا، ليكون وسيلة لنجاتهم من فرعون وجنوده، وانتصارا لهم على جبروته وطغيانه، وكذلك ما كان من غرق الأرض كلها، في عهد النبي نوح عليه السلام، عندما فار التنور، فهلك الكفرة وأنجى الله نبيه ومن آمن معه، فكل تلك الآيات هي حجج يستدل بها على أن النصر لا يكون بكثرة العدد، ولكن بتأييد الله وعونه أولا وأخيرا، وهذا ما أراد الشاعر التأكيد عليه من خلال استلهام هذه القصص القرآنية، التي وجد فيها من الآيات والشواهد ما يعزز آراءه وأفكاره، ويوفق تجربته، وهو ما يمثل الهدف الأول والأخير لكل استدعاء يلجأ إليه كل شاعر.

ويقول الشاعر احمد الشارف مستدعيا قصة سيدنا يوسف عليه السلام:

بُنْ مِنْ شَوْقِي تَبْكِي دَمًا بْ فِيهِ زَفِيرُهُ وَشَهيقُهُ
فَكَأَنَّهُ فِي كُلِّ دُسْنٍ يُوسَفُ وَكَأَنَّنِي فِي شَجْوٍ تِي يَعْقُوبُ بِهِ
يَا صَدَّاحَ قَاسِمَ عَنِي وَلَسْتُ بِكَانُوبٍ أَخُو الصَّدَاقَةِ لَمْ يَجْزْ تَكْذِيبُهُ
قُلْ لِلْعَمَمَائِمِ إِنَّ مَرَرْتَ بِحَدِيثِهِمْ أَنَّ الَّذِي أَضْنَى السَّقِيمَ طَبِيبُهُ
لَا تَنْهَضُوا لِبَنِيكُمْ جَزْ عُولَجِشُ الْهَوَى لَا يُسْتَطَاعُ دُرُوبُهُ
رَرَمَى السَّهَامَ عَلَى امْرِئٍ قُيِّمَ يَغْنَى عَنْهُ دَرِيبُهُ وَقَرَّ بَيْتُهُ (1)

يشكو الشاعر في هذه الأبيات من ألم الشوق وشدة الحنين إلى المحبوب، فالعين تبكيه بكلحرقه، بل تبكيه دما لفراقه وطول غيابه، والقلب لا ينقطع حزنه وأساه، على فقدان أعز الناس وأحبهم إليه، كيف لا وهو الذي لا يناظره حسنا وجمالا إلا سيدنا يوسف عليه السلام، الذي وصفه ربه وأثنى على حسن صورته، بل كان في جمال خلقه، وسحر طلعه فتنة للناظرين: قال المولى سبحانه وتعالى تأكيدا لهذا: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مَكَلًا وَاحِدَةً مِّنْهُنَّ سَوَّيْنًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّارَ أَتَيْنَهُ أَكْبَرُتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَقْلُنَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (2) فأى حسن هذا الذي ترك هؤلاء النسوة يقطعن أيديهن دون إرادة ودون ألم، إنه حقا إبداع رباني، وتجلي سماوي، يفوق كل وصف، ويتجاوز كل تصور، فسبحان واهب الجمال ومالكه، الذي تفنن في تصوير خلقه كما يشاء، وكيف ما يريد. فمن هذه اللوحة الربانية، استمد شاعرنا وصفه لحبيبه، ومنها استلهم معاني الحسن والجمال فيه، غير أن البعد والفراق حال بينه وبين الاستمتاع برؤيته، أو الأنس بقربه، كما حرم سيدنا يعقوب عليه السلام من رؤية ابنه يوسف، فعاش سنين يعاني ويقاسي هذا الحرمان، ويبكي هذا الفراق حتى ذهب بصره، حسرة وكما على غيابه.

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 168.

(2) سورة يوسف، الآية 31.

وَتَوَلَّى عَقْلُهُمْ عَلَى قَالِي يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ⁽¹⁾ ففي الآيات كل معاني الألم والمعاناة والمشقة، التي لاقاها سيدنا يعقوب عليه السلام جراء هذا الحرمان. بل ذهب الأمر به أبعد من ذلك حين حرم نعمة البصر. يقول المؤلفان **عَنْ وَجَلَّ: الْإِبْشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ قَارَتْ بَصِيرًا** قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِيَّيْ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ⁽²⁾ وقد حاول الشاعر استثمار هذه التجربة الانسانية وإسقاطها على تجربته، وفق رؤية فنية منحت نصه، إيضاحاً في المعنى وقوة في الدلالة، وجمالاً في الأسلوب، وهو ما يسعى كل شاعر إلى تحقيقه والوصول إليه من خلال استدعاء القصة القرآنية.

ثم يكمل الشاعر حديثه بمزيد من التأكيد على حالة الشوق والحنين التي لديه، بل يطلب من صاحبه تبليغها إلى قبيلته " العمائم " إلى أهله وأن يلتمسوا له العذر في ذلك فسهم الحب لا ترد، وجيوشه لا تقاوم، وما له الانقياد والتسليم لأمره.

بهذه الصورة كان استدعاء الشاعر لقصة سيدنا يوسف عليه السلام، التي قال عنها المؤلفان **فَقُطِبَ {عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ أَوْ يَحِينَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ** وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ⁽³⁾ وقيل في مدحها والثناء عليها سميت أحسن القصص لصدقها وسلاسة عباراتها ورونق معانيها. وقيل أيضاً لما فيها من العبر والحكم والعجائب واللطائف. وقيل سميت بذلك لحسن مجازاة يوسف لأخوته وصبره على أذاهم وكرمه بالعفو عنهم. وقد عمل الشعراء على توظيف هذه القصة في الكثير من أشعارهم، لما رأوه فيها من قيم الإيمان والتقوى والاحتمال والصبر والعفو والطهارة والعفة والوفاء والنبيل، وكلها قيم إيمانية وإنسانية عظيمة، تحرك المشاعر والأحاسيس والعواطف، وتفتح المجال أمام الخيال ليبدع فنا أصيلاً.

ويقول الشاعر في نص آخر يستلهم فيه قصة سيدنا يوسف:

_____أَدَاةً بِمَسْدٍ جَفِ _____فَتَ بِرَقْدٍ أَهْيَافِ
وَلِ حَاطِطٍهَا فَعَلَّتْ بِرَنًا _____فَعَلَّ الْحُسَامُ الْمُهْهَفُ
فِي رَوْضَةٍ رَقَصَتْ بِهِهَا عَطَافُ كُلِّ مُهَفَفٍ
وَالزُّهْرُ إِذْ هَبَّ التَّسْدِيرُ مُرْقَ قَصَّةٍ وَتَلَطَّافُ
جَاءَ الْبَشِيرُ بِهِهَا فَعَلَّتْ كَالْقَمِيرِ صِ الْيُوسُفِ
أَرْقَدْتُ نَوْرَ بَصِيرٍ ثُمَّ _____مَا كُنْتُ أَحْسَبُ بِهِهَا تَقِي⁽⁴⁾

(1) سورة يوسف، الآية 84.

(2) المصدر نفسه، الآية 96.

(3) المصدر نفسه، الآية 3.

(4) أحمد الشارف دراسة وديوان، 154، 155

فالأبيات الشعرية السابقة كما نراها بداية، تتحدث عن جمال الحبيبة، وما تتمتع به من أشكال الحسن، وأوصاف الكمال، التي فعلت بالشاعر كما يفعل الحسام الشديد الحدة، من قوة وقدرة على القتل والبطش أثناء المعارك، وهو تشبيه حاول الشاعر من خلاله، أن يصور إفتتانه بهذا السحر وهذه الروعة، التي سلبت عقله، وتملكت قلبه، فأصبح كل شئ حوله يذوب رقة ويتمایل طرباً، فهي لحظة من لحظات الفرح والسرور، والبهجة والحبور، بعد أن جاد القدر بقاء الحبيب، وجمعه به بعد طول فراق وأشواق، فما أروعها من لحظات، وما أجملها من أوقات، لا يجد الشاعر لها وصفا ولا شبيها، إلا فرحة سيدنا يعقوب عليه السلام وغبطته، بمجيئ البشير بقميص سيدنا يوسف عليه السلام، وعودة بصره إليه بعد أن ألقاه على وجهه، فهي غاية السعادة والمنى، أحييت الأمل في النفوس، وأعادت البهجة للقلوب، فما أروعها من لحظات. يقول المولى سبحانه وتعالى مصورا لهذا الموقف: ﴿فَصَدَّتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنَِّّي لَأَجِدُ رَيْحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَن تَفْقَدُونَنِي قَالَ ۖ ۝٩٤ اللَّهُ إِيَّاكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْأَقْدِيمِ ۝٩٥﴾ [المقام ٩٥] على وجهه فارّ تدّ بصره يرّ أقال ألم أقول لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون^(١) الكريم تلك اللحظات الرائعة في عمر الزمن، والتي حاول شاعرنا إسقاطها على تجربته، وربطها بحالته، وهو يلقي محبوبه ويجتمع به بعد طول عناء و فراق، وانتظار وأشواق، فيبعث فيه الحياة من جديد، كما بعث قميص سيدنا يوسف عليه السلام، الحياة لبصر أبيه، الذي فقد حزننا وألما وكمدا على فراقه، فما أشبه الصورتين في نظر الشاعر، وما أشبه الحالتين، رغم ما يحيط بهما من اختلاف الظروف والأسباب، إلا أنهما يشتركان في ما يغمرهما من دواعي الفرح والبهجة والسرور.

ومن صور استلهام القصص القرآني الأخرى، لدى الشاعر استدعاؤه لقصة فرعون فهي من القصص التي تحدث عنها القرآن، وصور أحداثها وما جرى على فرعون وكيف كانت نهايته، بعد استكباره وجحود وعصيان لأمر الله. يقول الشاعر موظفا لهذا الموقف:

كُمُ أَصْبَحَتْ عَنْهَا مُقَيَّدًا رِي إِلَى تِلْكَ الدَّ طَلِيْقُ
وَمَ أْنَا فِرْعَوْنَ الْغَرِيْقُ وَالْإِيْقُ كُنْتُ فِي بَحْرِ الدَّمُوعِ غَرِيْقُ
إِذَا مَا رِيَا حُ بِالْعَشِيِّ تَأَرَّجَ قَلْبِي مِنْ شِدَاهَا عِبْرَةً وَشَهِيْقُ
لَا نَ كَانَتْ جَانِي تَغِيْبُ عَنِّي قَلْبِي إِلَيْكُمْ صَادِقِيْنَ فَيُقُ^(٢)

مثل فرعون دائما صورة للعناد والبغي والظلم والتكبر، ومعاداة الحق وركوب الباطل. فقد أرسل الله إليه سيدنا موسى عليه السلام، ليدعوه إلى طريق الهداية، والإيمان بالله وحده، فأبى واستكبر وتجبر، وتمادى في غيه حتى قال كما جاء في القرآن الكريم قال تَغَالَى: ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ ۚ قُلْ هُوَ اللَّهُ تَكَاَلَا الْآخِرَةُ ۚ

(١) سورة يوسف، الآيات من ٩٤ - ٩٦.

(٢) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 392.

وَالْأُولَىٰ ۖ إِنَّكَ لَمِّنَ يَدْخَشِي ۝ (1) فكان هذا القول غاية في الكفر والجحود والعزة بالإثم ولم يكتف بذلك بل أمر قومه باتباعه فاتبعوه إلا القليل وقال كما جاء على لسانه في القرآن الكريم قَالُوا قَدْ عَلِمْنَا مَا تَأْتِيكُم بِهِ آيَاتُنَا لَٰكِنَّا أَهْدَىٰ لَكُمْ سَبِيلًا ۝ (2) وبهذا أضل قومه وسلك بهم طريق الهلاك، فكان مصيره ومصيرهم واحد في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فقد كان مصيره ومصيرهم الغرق والفناء، قَالَ قَعَلْنَاهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُودِهِ قَعَسِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۖ ط ۝ (3) أما في الآخرة فقد ذكره ووصفه المولى عز وجل في قولهِ تَعْلَمُ ۖ تَقُومُ السَّاعَةُ ۖ أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ (4) وهكذا كانت النهاية وكان الجزاء لكل من حاد عن طريق الحق، وعن الجادة. لقد عبر الشاعر في هذه الأبيات عن حالة الأسى والحزن والألم والشوق إلى أهله ودياره، بعد أن سجنه المستعمر الإيطالي، بسبب أشعاره التي تدعو الليبيين وتحثهم على الجهاد، ومقاومة هذا المستعمر، وطرده من أرضهم.

وإذا كان السجن والتتكيل هو ما فعلوه بهذا الشاعر، فإن أهله لم يسلموا هم أيضا من البطش والتعذيب الذي ألحقه بهم هذا المستعمر. ولعل هذا ما دفع شاعرنا إلى رفض تشبيه نفسه بفرعون، الذي أورد نفسه وأهله مورد الهلاك أما هو فقد ضحى بحريته، وتحمل ما تحمل من ألوان العذاب، من أجل الدفاع عن حقهم في العيش بحرية وعزة وكرامة. وبهذا فهو لا يرى جامعا له بفرعون إلا جامع الغرق والغرق أيضا مختلف بينهما من حيث المكان، فإذا كان فرعون قد عاقبه الله سبحانه وتعالى بإغراقه في البحر، فإن شاعرنا كان غرقه وبحره مجازيا، فهو لم يغرق في بحر من بحار الطبيعة، وإنما في بحر من الدموع، وهذا إيغالا في وصف حالة الحزن الشديد، والألم العظيم، التي مر بها الشاعر، وعاش تجربتها، وسببا أيضا في استلهامه لقصة فرعون وغرقه، رغم ما بين التجربتين من بون شاسع من حيث المضمون والهدف، إلا أن الشاعر قد وجد فيها ما يمكن الاستفادة منه وتوظيفه في صياغة تجربته الشعرية، والتعبير بواسطتها عن ما يجيش في صدره من مشاعر وأحاسيس اتجاه أحبته، الذين حبسته عنهم دواعي الفرقة والبعد، فعاش سنين يعاني هذا الألم ويكابه، بل إنه لا يفارقهم إلا جسدا، أما قلبه فهو معهم وبقرتهم في كل لحظة، وفي كل حين.

هكذا كان الشاعر في توجهه الفني الذي سلكه في تعامله مع القصص القرآني، كغيره من الشعراء الذين وجدوا فيه ما يهديهم ويرشدتهم إلى الكثير من العبر والمعاني والصور البلاغية الرائعة، التي حاول الشاعر بما يمتلكه من إمكانيات، وما لديه من أدوات، توظيفها والإفادة. منها، وهو ما منحه القدرة على نقل ما يؤمن به، ويشعر به إلى المتلقي، وفق رؤيته وفق أساليبه.

(1) سورة النازعات، الآيات من 23 - 26.

(2) سورة غافر، الآية 29.

(3) سورة طه، الآيات 78، 79.

(4) سورة غافر، الآية 46.

الاقتباس من الحديث النبوي الشريف:-

قال المولى سبحانه وتعالى واصفا كلام رسوله، ومؤكدا على صدقه وأمانته وإيمانه: **يَنْطَرِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**⁽¹⁾ ففي هذه الآيات بيان بأن حديث رسوله هو وحى منزل من عنده عز وجل، فكلامه لا يداخله شك، ولا تشوبه ريبة وبهذا فهو بعد القرآن الكريم في مرتبته وفي أسلوبه، لدى يعد ((أول أسلوب عربي قرآني هو أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم وكل الأساليب العربية متصلة به)) (2) فضلا عن أنه شرح للقرآن وتفصيل له، لما جاء فيه من أصول دينية وأحكام شرعية، أتت بشكل موجز ومختصر، لم يفصل القول في كثير من مسائلها، وبهذا فهو شرح للقرآن الكريم، وتبيان لأحكامه وحدوده)) (3). ولهذا فليس من الغريب أن يهتم الشعراء به، ويميلون إليه، ويغترفون من منبعه في نصوصهم بعد القرآن الكريم، وهذا ما نراه في بعض الأشعار التي تضمنت أحكاما من الحديث الشريف، وظفها الشعراء للاحتجاج بها في إثبات آرائهم وأفكارهم وما يرمون الوصول إليه، فضلا عن الارتقاء بشعرهم وبأسلوبه، من خلال تزيينه بالأحاديث النبوية الشريفة، إلى جانب ما تهبه للنص من قدسية، لكونه كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذي تعلق المسلمون به إيماناً وحبا له ولكلامه، وتفضيله على سائر كلام البشر، لما فيه من المعاني الجديدة، والأساليب الرائعة، ذهب الشعراء إلى توظيفها عن طريق الاقتباس النصي، أو الاشاري. فمن الاقتباس الاشاري على سبيل المثال ما قاله الشاعر الاندلس أبو الصلت أمية بن عبد العزيز:

أَيَّامَ الْحَيَاةِ بِأَسْرَرِهَا وَرَيْهَانٍ وَنَحْنُ بِهَا رُكَّابُ⁽⁴⁾.

ففي هذه الأبيات إشارة إلى حديث الرسول الكريم الذي يقول فيه: ((مالي وللدنيا ما أنا والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها)) (5) وقد أشار الشاعر إلى مضمون هذا الحديث ومعانيه، من خلال ما صاغه من ألفاظ عبرت عن نظرته للدنيا الفانية، التي لا مقام فيها، إنما الانسان كعابر طريق مر بشجرة ظليلة ليستريح، ثم يواصل رحلته، وهو ما جاء في مضمون الحديث الشريف، ويقول الشاعر أبو الرجال ابن غلبون، في أبيات يرغب فيها في الجهاد ويحث عليه:

(1) سورة النجم، الآية 3.

(2) خصائص الأدب العربي في مواجهة نظرية النقد الأدبي الحديث، أنور الجندي (د. ط. د ت) دار العلوم للطباعة، القاهرة، ص 153

(3) تاريخ الأدب العربي - العصر الاسلامي، شوقي ضيف (د ط 1960م) دار المعارف، مصر، ص 41.

(4) ديوان الحكيم أبي الصلت، جمع وتحقيق وتقديم محمد المرزوقي (د. ط. د ت) دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، ص 49.

(5) صحيح مسلم 4، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (د. ط. د ت) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 2031. وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تأليف محمد بن حبان بن أحمد أبوحاتم التميمي البستي، تحقيق شعيب الأرنؤوط (د ط 1993م) دار مؤسسة الرسالة، بيروت، ج 14: ص 42.

لَهَا تَتَّهَادَى الضُّمُرُ الْفُؤُودُ لَا يَرَوْنَ أَصْدَى الْخَيْلِ مَعْفُودُ
وَآيَةٌ سَمَلَتْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ لِعِ نَضْرٍ يَدْبُهَا أَوْ جَنَّةٌ وَرْدُ⁽¹⁾

وهنا يحاول الشاعر من الأبيات السابقة، أن تكون الأبيات حجة، وشاهدا على الأمر الذي يدعو إليه بالجهاد على الخيل المسومة، ويشير إلى الخير القادم، مسئلتهما حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: ((الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة))⁽²⁾.

وقد كان للشعراء الليبيين كما كان لغيرهم، وقفات مع الحديث النبوي الشريف، مسئلهمين معانيه، وموظفين ألفاظه، وعباراته، وأحكامه، رغبة منهم في إثراء نصوصهم، وأملا منهم في الوصول إلى غاياتهم.

ومن صور هذا الاقتباس الاشاري قول الشاعر محمد صالح الفقيه في قصيدته التي بعنوان: إيماءات، حيث يقول:

حَرِّمْنَا انْتِلَافًا
وَابْتَدَأْنَا فِي مَرَّاسِيهِمَ الْفَرَحَ
هَيَّأْتُ نَفْسِي لَا حَتَمَ إِلَّا تَقْصِدَ يَدَ
لَكُنْ شَرُّ طَرِيًّا تَسْمُرَ بَيْنَنَا
فَرَجَعْتُ مُكْتَتِبُ الْخُطَى:
لَا تَجْلِسْ أَمْرًا إِلَى رَجُلٍ هُنَا
إِلَّا وَبَيْنَهُمْ مَا... تَلَا شَى الْأَحْتَمَ⁽³⁾ ل

لقد اقتبس الشاعر جملة الشعرية، وما ترمي إليه من معان في هذه القصيدة من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: ((ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان))⁽⁴⁾ وهذا الحديث الشريف يأتي في إطار زجر الرسول الكريم ونهيه، عن هذا الاختلاء، وما قد يترتب عليه من المخالفات الشرعية، التي يخاف الرسول الكريم على أمته من الوقوع فيها. ولعل الشاعر زجر نفسه بهذا الحديث واستحضره، بعد أن رأى ما رأى من أشكال الاختلاط في مناسبة من مناسبات الفرح، التي هيئ لها نفسه، واستعد لها كامل الاستعداد، ليعيش أجواءها الفرائحية، ويستمتع بلحظات أنسها، مع المرأة التي قد تمنحه الفرصة، فرصة الانفراد بها، وسط هذا الاختلاط القائم بين الذكور والإناث، غير أن شاعرنا وهو يمني نفسه بهذه اللحظات، يجد نفسه أمام حائل يحول بينه وبينها، إنه استحضاره لحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه الشاعر بالشرطي، ويقصد بالشرطي ضميره،

(1) زاد المسافرين وغرة محيا الأدب السافر، أشعار الأندلسيين في عصر الدولة الموحدية، أبي بحر بن صقوان بن ادريس المرسى، أعده وعلق عليه عبد القادر محداد (د ط 1980م) دار الرائد العربي، بيروت، ص 109.

(2) الجامع الصحيح المختصر، البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا (د ط 1987م) دار ابن كثير. اليمامة، بيروت، ص 1147.

(3) قضايا الانسان الليبي المعاصر، ص 234، 235.

(4) سنن الترمذي (د ط 1994م) دار الكتب العلمية، بيروت، ج 6: ص 356.

فضميره هو الذي استحضر الحديث الشريف، فيعود بذلك أدراجه كنيبا حزينا، تسربت منه الأحلام، وضاعت منه الأمنيات، وتلاشت احتمالات اللقاء.

والشاعر عبد الحميد القمودي يستفيد هو الآخر من معنى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: ((قدمتم خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه))⁽¹⁾. يقول الشاعر مضمنا معنى هذا الحديث في قصيدته: ما بعد الجلاء:

أَنَا لَا أَذْكُرُ أَنَّ الثَّوْرَةَ الْغَرَّيْدُ الْإِثْصَارُ
وَجَلَاءُ الْغَاضِبِ الْمَهْزُومِ عَنِ هَذِي الدِّيَارِ
فَرْدَةً كُبْرَى... عَظِيمَةً
رُحْفَةً كُبْرَى وَلَكِنْ
فَرَحِي أَكْبَرُ لَمَّا
صَدَى النَّفْسِ يَجْلِي
وَجْهَ سَادِ النَّفْسِ أَكْبَرُ⁽²⁾

لقد عبّر الشاعر في هذه الأبيات عن فرحة الانتصار على الأعداء، بجلائه عن أرض الوطن لكن الفرحة الكبرى في نظر الشاعر لا تكتمل بانتصار المواطن على نفسه وجهادها، فهي الأهم عند بناء كل وطن، والوصول به إلى آماله وطموحاته فأطماع النفس البشرية وأهوائها، تظل دائما العائق الأكبر لتحقيق هذه الأمنيات.

ويقول أحمد الشارف مستلهما بعض معاني ومضامين الحديث الشريف، وبعض مصطلحاته التي رأى فيها سندا وعونا له، لإيصال ما يرمي إليه من رؤى وأفكار بصورة أكثر جمالا وإثارة إلى المتلقي. يقول أحمد الشارف في إحدى قصائده:

مَنْ يَجْعَلِ الْأَشْوَاقَ طَبْعًا يَصْدُبُو لِضَاوِيَةِ الْجَيْنِ
وَ أَتَتْ لَمَّا خُلِقَتْ لَهَا مَكْهَيْلُورَدَ الْحَدِيثُ بِرْدُونَ مَرِينِ⁽³⁾

فأي حديث يتحدث عنه الشاعر؟ انه حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: ((كل ميسر لما خلق له))⁽⁴⁾ ومن خلال هذا الحديث يريد الشاعر أن يبرر ما يعانيه من لواعج الهوى واكتوائه بناره، وما يستهويه من أشكال الجمال والفن و هو متأصل في نفسه التي خلقت بهذا الطبع وجبلت عليه، ومن يلومه ويعاتبه وينكر عليه هذا من العذال فهم لا يفهمون طبيعة النفس البشرية ولا أسرارها.

وعليهم أن يقرأوا كتاب الله، وأن يقفوا على أحاديث رسوله ومنها هذا الحديث، الذي يؤكد على هذه المسألة، وإذا لم يصلوا إلى قناعة فهم ليسوا بأهل للحب، ولا

(1) الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى جامع الصغير، يوسف النبهاني (د ط. د ت) دار الكتاب العربي، ج 2: ص 270.

(2) قضايا الإنسان في الشعر الليبي المعاصر، ص 235، 236.

(3) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 146.

(4) صحيح مسلم ج 2: ص 132.

للتعلق بضأوية الجبين، لما في قلوبهم من غلظة، ونفوسهم من قسوة فطروا عليها وليتركوا الحب والصبابة والشوق والإحساس بالجمال لأهله الذين هياهم الله له. ويقول في أبيات أخرى:

بِي وَالأَحَبَّةُ أَتَنَّمُوْا بِمَاشَاءِ الْغَرَامِ تُحْكَمُوا
وَشَرَطُ الْهَوَى السَّلِيمِ وَالشَّرْطُ لَالْزِيْفِ فَلَا أَشْكُو وَلَا أَتْظَلَّمُوا
وَإِنِّي عَلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَمَنْ وَشَلِيهِ خَطَافِي كُلُّ مَا يَتَوَهَّمُوا
وَكَلِّمْ لِقَوْلِ أَشْيِ حَدِيثًا مُضْعَفًا لَهُمْ أَتَنِي قَدْ تَسَلَّيْتُ عَنْكُمْ
عَلَّيْ يَأْرُوِي حَدِيثًا مُجَبِّلًا ۞ اسْنَدِمَا كَانَ يَرُوِيهِ مُسْلِمٌ (1)

نرى من خلال الأبيات السابقة انعكاس الثقافة الدينية والتشريعية، التي يتمتع بها القاضي الشاعر. إنه يستخدم بعض مصطلحات الحديث مثل "مضعفاً" ويقصد الحديث الضعيف والحديث الضعيف ((هو كل حديث لم تجتمع فيه صفات القبول. وقال أكثر العلماء هو ما يجمع صفة الصحيح والحسن)) (2) وقد أراد الشاعر عبر توظيف هذا المصطلح، نفي ما ينقله الواشون من أحاديث وأقوال على لسانه إلى أحبه بأنه قد تخلى عنهم وعن هواهم، ونسي ما كان بينه وبينهم من عهد وود، بل ووجد ما يسليه عن هذا الحب ويشغله عنه، وهذا إيهام لهم بغير الحقيقة، كما يصف هذا الحديث، بأنه حديث ليس له سند فما الحديث المسند؟ ((الحديث المسند هو ما اتصل إسناده من رآويه إلى منتهاه ولذلك وصفه أيضاً: أنه متصل أو موصول)) (3).

هكذا نرى الشاعر يحاول التأكيد من خلال استخدامه لمصطلحات الحديث، على ما يحس به ويشعر، اتجاه أحبابه وإيضاح الصورة الحقيقية لهم، خلاف ما يدعي البعض، ويحاولون ترويجه عنه، وإن كان هذا التوظيف لم يطبع بالطابع الفني لمفهوم الشعر، الذي يركز على جمال الصورة، وجمال الألفاظ، والخيال، وهذا لم يتحقق في هذه الأبيات، فالشاعر ركز جل اهتمامه على الوزن والقافية، وهي جانب من الجوانب الفنية للعملية الشعرية، وليست العملية الشعرية بكل مقوماتها وركائزها، ولعل فقه الشاعر وعلمه الشرعي قد طغى في هذه الأبيات على موهبته الشعرية، ووجهه هذا التوجه، أو هي محاولة لاستعراض قدراته الإبداعية وإمكاناته الفنية في الصياغة وبراعة الأسلوب، وبرغم كل هذا تظل هذه التجربة تجربة فنية تبناها الشاعر وحاول من خلالها تصوير ما يمكن تصويره، من شوق وحنين وعتاب للأحبة والأمل في لقائهم.

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 57،

(2) أصول الحديث علومه ومصطلحاته، محمد عجاج الخطيب (د ط 1992م) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص 45.

(3) علوم الحديث ومصطلحاته، صبحي الصالح (د ط 2000م) دار العلم للملايين، بيروت، ص 45.